الظلام العفن

قصة بقلم جورج طرابيشي

– لماذا أنا هنا ؟

هذا هو السؤال الذي كان يطرحه على نفسه مئات المرات منذ ان سجن. ورفع يده وأمرها على جبينه ثم عينيه وانفه وكأنه استيقظ من النوم تواً

لماذا تركت القاهرة ؟

ولم يحاول ان يجمع خيوط الجواب في ذهنه ، خوفاً من ألا يجد الجواب المطلوب . كان اشد ما يضايقه منذ شهرين – إن لم يخطىء الحساب – هو هذه الظلمة العفنة اللاصقة بكل ذرة من جسده . كان يكره الظلام ، وخاصة الظلام العفن الذي يحمل في طياته كل ما يمكن ان يأتيه البشر من شر . وكان الظلام يذكره دائماً بحادثة لم تستطع ايدي الزمن محوها من ذهنه ... كانت الليلة دافئة عندما خرج من البار وهو يتمايل الى الجهتين ، وقد اثقل رأسه بزجاجتين من الشمبانيا ، وكان تواقاً الى جسد امرأة ، الى انثى تغمره بالدفء بعض الساعات . كان يسائل نفسه عن السبب الذي حدا بالفتاة التي كانت تجالسه الى رفض دعوته بالذهاب معه الى الفندق لقد تملكه العجب عندما عرض عليها ذلك فرفضت بلهجة قاسية ، ليس من عادة امثال هذه الفتاة ان يرفض مثل هذه الدعوة . ولكنها رفضت ... هذا كل ما استطاع ان يحتفظ به في ذاكرته المتعبة .

– اني مستعد لأن ادفع لك ما تشائين .

وتطلعت اليه وأجابت وهي تحاول ان تجعل لهجتها لطيفة :

– اني آسفة ، فأنا لا استطيع ..

واعاد العرض مرة ثانية وثالثة وعادت الى الرفض . وتصاعد الدم الى رأسه بل كاد ان ينفر من عينيه ، وامسك بذراعها يشد عليها بقسوة ولذة وصاح :

– ستأتين معي مهما حدث . أليست هذه مهنتك !

وأنّت الفتاة وهي تحاول ان تخلص ذراعها ثم صرخت بلهجة متألمة

– لا ! لا اريد الذهاب . أتفهم ذلك ! اترك ذراعي ايها المعتوه

هو المعتوه ... لم يسمع ابداً من يقول له مثل هذه الكلمة ... ورفع يده عن ذراعها لا ليطلق لها حريتها بل لينهال عليها ضرباً ولكماً وهو يزمجر

– سأعلمك ايتها الكلبة لمن تقولين له : معتوه ! ايتها القذرة ! بنت ...

واقبل صاحب البار والخدم محاولين فض النزاع بينما كان جميع الحضور يحدثون به وبالفتاة وقد ملأت النشوة رؤوسهم ، والتمعت عيونهم سروراً وعندما كان يغادر البار اقترب منه صاحب المحل هامساً بأذنه :

– انها لم تزل عذراء يا سيد محمود ، وهي جديدة في المهنة ، ولكني سأتخلص منها على كل حال ...

انها لما تزل عذراء ... اذن فهذا هو سبب رفضها الذهاب معه الى الفندق .. يا له من حيوان حقير ! كيف ضربها وشتمها ؟ ولكن لم اختارت هذه المهنة ما دامت تريد الاحتفاظ بطهارتها ؟ وظل هذا السؤال يدور في عقله طيلة يومين كاملين بعد الحادثة ، ولم يستطع ان يجد له جواباً الا عندما طالعته صحف الصباح بنبأ العثور على جثة فتاة في النيل ، وبجانب النبأ صورة الفتاة . وكانت هي نفسها الفتاة التي رفضت الذهاب معه الى الفندق . لقد انتحرت وساد في نفسه منذ تلك اللحظة انه هو سبب انتحارها ، ولولاه لما غادرت مثل هذه الروح البريئة الفردوس الأرضي .

وعاش طيلة السنوات الاربع التي تلت الحادثة اسيراً لضميره .. لقد كان السبب في موت فتاة بريئة لأنه احب في يوم من الايام ان يلهو في الظلام العفن . وكان يريد دائماً ان يهرب من ضميره .. من شبح الفتاة وهي تجيبه :

– اني آسفة ، فأنا لا استطيع ...

ولكن رائحة الظلام العفن كانت اقوى من ارادته فراح يسعى ابداً الى عمل يكفر به عن جريمته .

وعمل صحفياً بعد الحادثة ، واصاب نجاحاً مرموقاً في مهنته هذه ، واطلع على مآس كثيرة منها ما هو اقسى من مأساته ، الا انه لم يتمكن من نسيان الفتاة ولا الرغبة الخؤونية التي تملكته عندما ضربها ولكمها .

– لقد مضى وقت طويل جداً منذ ان غادراني . لابد ان حكم الاعدام قد نفذ فيهما ، بل لابد ان الدود قد بدأ عمله بالجثتين ، هذا اذا دفنا .

ولم يرتعد عندما تخيل منظر جثتين مربوطتين الى عامودين من الخشب وقد اخترقها الرصاص فأصبحتا اشبه بالغربال يتدفق من ثقوبه الدم . لقد اعتاد على مناظر الموت والرصاص والجثث . وسيلاقي هو نفس المصير بعد قليل .

ولكن الدود ! يا الهي ! سينهشها الدود !

واخذته رعدة شديدة ولم يشعر الا وهو يتقيأ. كان التفكير بالدود اقوى من ان تحمله اعصابه. وحاول ان يتبين ما تقيأ ولكن الظلام الكثيف منعه من ذلك . وخيل اليه ان عدداً كبيراً من البزاق يحتل كل مكان من جسده : يديه ورجليه ووجهه وحتى داخل فمه وامعائه . وكانت كل بزاقة تحمل اليه آلاف الاطنان من القرف والعفونة واستعد للقيء مرة ثانية لولا انه تخيل جثته والدم يتدفق من ثقوبها

وعلت الابتسامة شفتيه وهو يتصور نفسه وقد قادته مفرزة من الجنود الى ساحة السجن العريضة ، وهناك ربط الى عامود خشبي وقد وقفت على بعد عدة ياردات منه دزينة من الجنود . ويصيح بهم قائدهم فجأة :

– استعد !

وتنتصب قامات الجنود ، وتشتد قبضاتهم على بنادقهم . ويصدر القائد امراً آخر ويملأ الجنود بنادقهم ..

– صوب !

وتتجه افواه الاثني عشرة بندقية اليه . ولعله سيسأل نفسه عندئذ ماذا سيحدث له عندما ينطلق القائد بالكلمة الأخيرة ؟ تراه بماذا سيفكر في تلك اللحظة الاخيرة ؟ وهل سيتركون له مجالا للتفكير ؟ وتتدفق الحروف :

– نار !

وتنفجر البنادق ويتدافع ازيز الرصاص الى اذنيه حاداً مؤلماً .. ثم يدخل في عالم جديد مجهول

لقد كان غريباً ان يطلب من تلك الفتاة ان ترافقه الى الفندق . وكان غريباً ان تلقي بنفسها في النيل ، وكان غريباً ان يموت رفيقاه ليلحقهما هو بعد قليل . انه سيعدم بعد لحظات ، وكان من المفروض عليه ان يتشبث بالحياة ان يشعر بالخوف . لقد مات كثيرون واعدم الكثيرون ، والحياة تتابع جريانها . ان جل ما يتمناه هو ان يكتب احدهم قصة عن موته . كان يتمنى ان يكون حظه كبابلو بطل قصة « الجدار » لسارتر . لقد ارتعد بابلو من الموت وتشبث بالحياة كثيراً . اما هو فلا تهمه الحياة الآن ابداً ، انما يرغب

في امر واحد هو ان يعيش الآخرون جزءاً من قصته ، ان يطلعهم على خبايا نفسه ، وعلى الظلام العفن الذي عاش فيه مرة . كان الامل الوحيد الذي تبقى له هو انه يموت في سبيل الآخرين ، في سبيل الفتاة التي انتحرت ، وان الآخرين يشاركونه في موته .

كيف سيشعر عندما يقف القائد ليأمر باطلاق النار ؟ لا ريب انه سيرتعد. لو كان بجانبه آخرون ، لو احس بأنفاس الآخرين تلفح وجهه ، لما تزك ثغرة في نفسه يتسرب الخوف منها . لو كان معه الآخرون لغنوا وانشدوا بل لألقى بعضهم نكتاً . ولكنه سيعدم وحيداً . ان المأساة الأكثر الماً في الحياة هي ان يموت الانسان وحيداً لا يشاركه الآخرون ...

– لماذا انا هنا الآن ؟

كان رئيس الصحيفة التي يعمل فيها يحبه كثيراً ، وكان كل شيء يسير على ما يرام الا ذكرى فتاة البار . وكان يعتني بالانباء القومية ، ويحاول ان يشرح على صفحات الجريدة التي يعمل فيها جميع مراحل النضال التي يخوضها العرب في جميع اقطارهم . وعندما اشتعلت الثورة في المغرب العربي اخذ يتتبع اخبارها ويتلقفها من كل مصدر : من الاذاعات والصحف العربية والفرنسية ، ويقوم بكتابة الريبورتاجات الشيقة عن الثورة والمغرب . وفي غمرة انهماكه في عمله هذا تناسى قليلا حادثة فتاة البار لأنه بدأ يعيش جزءاً من حياة الآخرين ، جزءاً من ثورة المغرب . وكان اروع ما تعلمه من هذه الثورة ان الانسان يستطيع ان يناضل حتى ضد الظلام العفن . وخمدت الثورة في تونس وتبعتها مراكش بينما اشتد اوار المعارك في الجزائر . وراحت الحكومة الفرنسية تضرب ستاراً من الصمت والكذب حول حقيقة المعارك ، وصمتت الصحف العربية او كادت عن الجزائر . وعندئذ رأى ان الفرصة قد سنحت اخيراً ، فجاء الى رئيسه طالباً منه ان يأذن له بالذهاب الى الجزائر ليتتبع من هناك انباء الثورة كما هي لا كما تذيعها الحكومة الفرنسية .

وجاء الى الجزائر ، واحس بالخوف عندما سمع اول طلقة نارية ، وتلتها طلقات ، واعتاد على كل شيء ... كان يستقبل في كل مكان بالترحاب ، وكان السؤال الذي يطرحه عليه المناضلون عندما يعلمون انه من مصر :

– ماذا تعلم عن جمال عبد الناصر ؟

وكان يروي لهم قصة جمال وقصة مصر . وكم احس بالحرج بل بالخجل لما استقبل به من حفاوة . كان يحاول ان يكون كالآخرين ، الا يفترق عنهم . وتجرأ يوماً فألقى سؤالا على جماعة من المناضلين :

– لماذا تستغربون حضوري بينكم ؟ ألست عربياً مثلكم ؟

وجاء الجواب من احدهم :

– حقاً نحن جميعاً عرب . ولكنك تعلم ان العرب اليوم يعيشون في سلبية مطلقة .

وعاد اليه شعوره بعفونة الظلام. لعله جاء الى هنا لأنه لم يرد أن يوصف بالسلبية . وطرق سمعه اصوات وهمهمات واقدام تتنقل فوق زنزانته ، وادرك ان النهاية قد حلت :

– لقد جاء دوري .

ورفع عينيه الى فوق وضم يديه الى بعضهما وحاول ان يصلي، ولكن الكلمات ماتت على شفتيه . كان يفكر ، يفكر بأشياء كثيرة .

– ترى ماذا فعلوا بجثتي صديقي ؟

كان ثلاثتهم يتجهون الى مدينة الجزائر ، هو والآخران اللذان اعدما ، وكانا يحرسانه . وكانت الغاية من رحلتهم هي ان يكشف الاسباب الحقيقية التي ادت الى الانفجار الذي حدث في الحي العربي من المدينة . وعندما كانوا عائدين الى مراكزهم التقوا بدورية فرنسية ، وبدأت المناوشة وسقط احد الجنود الفرنسيين ... وكان هو منبطحاً على بطنه يرقب المعركة بهدوء ، اما رفيقاه فكانا منهمكين في اطلاق الرصاص لا يعيرانه انتباهاً . وتكاثر الفرنسيون ، ولم يحس الا ورفيقاه يتوقفان عن اطلاق النار . وتملكه الجزع فتطلع اليهما مستفهماً ، واجابه احدهما :

– لقد نفد الرصاص .

– وماذا سنفعل اذن ؟

– لا ادري .

واسرع الفرنسيون ونقلوا الى سجن كبير في المدينة ثم اجريت محاكمتهم بسرعة وصدر الحكم باعدامهم .

– ترى هل سأشعر بالالم عندما يخترق الرصاص جسدي ؟

وعاد التفكير بزميليه اللذين اعدما . كان اولهما اشقر الشعر ، ازرق العينين ، متوسط القامة ، يشبه الفرنسيين الى حد كبير ، ولا يعرف من اللغة العربية شيئاً الا بضع كلمات ، قضى اكثر حياته في فرنسا ونال ليسانساً في الحقوق من السوربون . اما الثاني فكان نحيلا ، اسمر ، كوته شمس الجزائر بلهيبها ، يتبسم باستمرار ، مع ان جميع افراد عائلته قتلوا في هجوم شنه الفرنسيون على قريته .

لقد امضوا في هذه الزنزانة ، على ضيقها ، مدة شهرين كاملين . وكانوا يقتلون الوقت بالتحدث عن طفولتهم والاحداث التي مرت بهم ، والمشاكل التي تواجه العرب في كل اقطارهم . وكثيراً ما القوا النكت والنوادر ، وشتموا الفرنسيين .

ومنذ اربع وعشرين ساعة عندما اطل خمسة من الجنود من باب الزنزانة ،

صدر حديثاً

قناديل اشبيلية

مجموعة قصصية

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

منشورات دار الآداب : بيروت

وطلبوا من رفيقيه ان يتهيأ تملكه العجب ثم صاح :

– وأنا ؟ ماذا ستفعلون بي ؟

واجابه احد الجنود بسخرية :

– لا تخف . غداً تذوق هذا الكاتو .

وفتح فمه ليشتمه بسبب سخريته هذه ، ولكن ذا الشعر الاشقر والعينين الزرقاوين التفت اليه مودعاً :

– أتعلم يا محمود ! انني لست خائناً ، ولكنني حزين قليلا . هذا كل ما في الأمر .

وحبس محمود الدموع التي كادت تنفر من عينيه ثم اجاب :

– نحن جميعاً غارقون في الحزن . لا بأس عليك .

– أتعلم يا محمود ! ستبقى وحيداً في زنزانتنا هذه .

– هذا صحيح ، ولكني لن انساكما .

واقتادهما الجنود ، وقبل ان يغلق باب الزنزانة من جديد صاح ذو البشرة السمراء :

– وداعاً يا محمود .

ولم يجب محمود هذه المرة ، بل رفع يده بتثاقل ولوحها مودعاً . وعندما اختفوا عن ناظريه احس بألم حاد في رأسه ، ثم انخرط في البكاء . ومضت ربع ساعة ثم نصف ساعة ثم ساعة وساعتان ، كان يترقب خلالها ادق صوت عله يسمع صوت الرصاص الذي يعدم به رفيقاه ، ولكنه لم يسمع شيئاً . وعندما جاءه الحارس بعد عدة ساعات بقليل من الطعام سأله :

– انني لم اسمع صوت الرصاص ، فماذا حدث لرفيقي ؟

– لقد اعدما . أتسمع ذلك ، لقد اعدما خارج السجن . وسيحين دورك بعد عدة ساعات .

واطلق الحارس ضحكة نذرة وهو يغادر الزنزانة . ولكن محمود لم يسمع شيئاً .

ومضت الاربع والعشرون ساعة وجاء دوره . سيطل من باب الزنزانة بعد قليل خمسة جنود وسيقتادونه الى الخارج ، وهناك سيعيش آخر لحظة له . كان يتمنى لو انه اعدم مع رفيقيه ، ولكن الانذال اجلوا موعد اعدامه قليلا كي يزداد عذابه .

– ترى ماذا تفعل امي الآن ؟

لقد غادرها وهو يقول لها :

– انني ذاهب الى اوربا في جولة صحفية . وسأعود اليك بعد شهرين او اكثر .

وصدقت امه كلامه ، وعندما كانت تقبله قبلة الوداع سلمته فصاً صغيراً وقالت له : « احتفظ به يابني ، فهو يحميك من كل الاخطار . »

وقبل ان يتحرك القطار همست بأذنه : احذر يا بني الفتيات الأجنبيات فهن اخوات الشيطان .

كان يتمنى لو انه ترك لها ما يذكرها به . ولكن يجب الا تعلم بموته والا قضت حزناً . ولكن الى لها ان تعلم ؟ لقد مات الآلاف وسيكون احدهم ، بل لعل العالم لن يسمع عنه شيئاً بعد الآن .

– مسكينة امي !

وعندما رفع يده الى جبينه ليزيح خصلات الشعر المتهدلة عليه احس بالعرق البارد يكسو جلده . ورغب ولو للحظة فقط ان يرى صورته في المرآة ، ان يرى قطرات العرق المتناثرة على جلده الاصفر ، وعينيه اللتين تتحركان بتثاقل وقد جف ماؤهما ، والآخر – الشهيد – الذي يعيش فيه .

لماذا وضعوه في زنزانة مظلمة ؟ لم يعد يخشى الظلام اخيراً ، حتى ولو كان عفناً . ولعله سيلتقي هناك ، في العالم الآخر ، بفتاة البار التي انتحرت .

مجموعات « الآداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الثلاث الاولى من « الآداب » تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٤٥ ل.ل	٥٠ ل.ل
〃 〃 الثانية	٢٥ 〃 〃	٣٠ 〃 〃
〃 〃 الثالثة	٢٥ 〃 〃	٣٠ 〃 〃

ترى هل ستذكره ؟ سيطلب منها ان تسامحه وسيمسك بيديها برفق ثم يهمس بأذنها :

لماذا هجرت هذا العالم ؟ لقد عشت من اجلك طيلة هذه السنين الاربع ! أتسمعين ! لقد عشت من اجلك ، ولعلني ضحيت من اجلك ايضاً ، ألن تسامحيني ؟

لا ! انها ستسامحه . انها اطيب فتاة التقى بها في عمره . لقد كان نذلا عندما ضربها .

– هل سيضعون عصابة على عيني ؟

سيطلب منهم ان يتركوا لعينيه الحرية ، فهو يريد ان يرى عيونهم عندما سيطلقون الرصاص . ولعله سيتمكن من مشاهدة انسان ما كامن في جسد احدهم . لقد اراد ان يرى مثل ذلك الانسان منذ وقت طويل . وتساقطت دمعتان جديدتان من عينيه ، ورفع يده يمسح خديه . كانت يده ترتجف ، ترتجف بشدة . وحاول ان يدعها ثابتة ولكنها كانت تقاومه . ان يده تذكره بيد اخرى ، اليد المرسومة على غلاف قصة « الجدار » لسارتر . لقد كانت تلك اليد مرعبة عارية ، لا ترتجف بل هي تتشبث . تتشبث بالجدار ، بالحياة ، وكان الدم يسيل من اظافرها .

واحس بحركة عند باب الزنزانة . انهم جاءوا اخيراً . وفتح الباب . اما هو فقد اغمض عينيه . انه لا يريد ان يرى جلاديه الآن . ولكن صوتاً مألوفاً طرق اذنيه باللغة العربية :

– نحن رفاقك يا محمود .

ولم يصدق عينيه واذنيه . كانوا ستة من الذين تعرف اليهم في الجبال . وسألهم ببلادة :

– ماذا جئتم تفعلون هنا .

– لنأخذك معنا .

– الى اين ؟

– الى معاقلنا .

– ولكن ! كيف ؟ كيف تستطيعون ...

– لقد احتللنا السجن . انه سجن صغير ، وحاميته قليلة .

وسار معهم . لم يكن يرى شيئاً امامه . كان يسير كالاعمى . وعندما احس بنسيم الفضاء العاري يلفح وجهه ايقن انه حقيقة تخلص نهائياً من الظلام المنفن.

جورج طرابيشي